

بسم الله الرحمن الرحيم
شرح رياض الصالحين
شرح مقدمة الباب

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا باب "النهى عن سؤال الإمارة، واختيار ترك الولايات إذا لم يتعين عليه أو تدع حاجة إليه"، وذلك أن الولايات هي حمل ثقيل وعبء وأمانة يسأل عنها الإنسان ويحاسب عليها، وسيأتي ما يدل من النصوص على أن الإنسان إذا حصلت له الولاية من غير سؤال فإنه يعان عليها، بخلاف ما إذا سألها هو، فإذا كان الإنسان في عافية من ذلك كله فإن ذلك أسلم له، وأبرأ لذمته، وأخف لأحماله وأعبائه التي يقدم بها على ربه -تبارك وتعالى-، فالإنسان يسأله الله -عز وجل-، ويحاسبه عن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن عمره، وعن شبابه^(١)، ويسأله عن استرعاه الله -تبارك وتعالى-^(٢)، إياهم من زوجة، وولد وخادم، فكيف إذا كان يلي ولاية يدخل تحتها فئام من الناس؟ فإن ذلك لا شك أنه أشد، وأعظم وسيسأل عن هؤلاء جميعاً يحاسبه الله -تبارك وتعالى- عن جائعهم، وعاريهم، وجاهلهم، يسأله الله -عز وجل- عن كل تقصير يقع تجاههم.

يقول: "إذا لم يتعين عليه أو تدعو حاجة إليه" بمعنى أنه لم يوجد من يقوم بهذا، ويسد ذلك من المسلمين سواه في ولاية من الولايات، لا يوجد إلا هذا ممن استوفى الشروط فإنه يتعين عليه، يكون ذلك في حقه من فروض الأعيان، وإلا فإن الولايات من فروض الكفايات، يعني يجب أن يوجد في المسلمين من يقوم بذلك، وتحصل به الكفاية، وقد يتعين على أحدهم إن لم يوجد سواه ممن يصلح لهذا، فهنا لا يجوز له أن يعتذر يتخلى أو يتصل من ذلك، يقول: أو تدعو حاجة إليه كما قال يوسف -عليه الصلاة والسلام-: **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** [يوسف: ٥٥]، فيوسف -عليه الصلاة والسلام- طلب الولاية من ملك مصر؛ لأنه عرف من نفسه الأهلية، والحاجة داعية إليه، والبلاد مقبلة على أمر عظيم من سني القحط، وبحاجة إلى رجل أمين لا يضيع الأثوات والثروات والأموال، ثم بعد ذلك يصير الناس إلى مسغبة وجوع وهلاك، وهي بحاجة إلى رجل قوي يحسن هذا الباب من أبواب الولاية، إدارة الأموال وخزائن الأرض، فقال: **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** فهذا من أخبار من سبق، وكلام أهل العلم معروف في شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أو لا؟.

جاءت عندنا النصوص تنهى عن سؤال الإمارة، فهذا الذي شرعه الله -عز وجل- لنا، وتعبّدنا به، فهل يقول قائل: أنا أسأل الإمارة ابتداء في غير هذه المواطن اقتداء بيوسف -عليه الصلاة والسلام-؟

(١) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في القيامة، برقم (٢٤١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٧٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، برقم (٨٩٣)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الفرق بالرعية، والنهى عن إدخال المشقة عليهم، برقم (١٨٢٩).

الجواب: لا؛ لأنه جاء النهي عن ذلك من جهة، ومن جهة أخرى هل أنت مثل يوسف -عليه الصلاة والسلام-؟، ومن الذي يستطيع أن يزكي نفسه "إني حفيظ عليم"؟، لكن كما سبق أنه إن وجد فيه من القدر، والإمكانات التي يستطيع فيها أن يقوم وينهض بأعباء قد لا يستطيع أن ينهض بها الكثيرون، وعرف ذلك من نفسه، ولم يُعرف ذلك عنه فله أن يبتدئ ويقول: أنا أستطيع القيام بهذا، أنا إن توليت على هذا الأمر كفيتمكم لا حباً في الولاية، والتسلط، فإن ذلك أمر مذموم شرعاً، وهو مذموم أيضاً من جهة النظر العقلي، والنبوي -صلى الله عليه وسلم- جاء عنه في الحديث الآخر: **((ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه))**^(٣)، فحب التروُّس والتسلط والرفعة أمر مجبول في النفوس، تحبه النفوس وتميل إليه، ويدعم ذلك ويقويه البيئة التي يتربى فيها الإنسان، والتربية التي يتلقاها منذ نعومة أظفاره، فإذا كانت الأم تتشئ طفلها وهو صغير في مراحل الأولى من التعليم وتقول: إن شاء الله تصير مديراً كبيراً، أو وزيراً، فينشأ عنده مثل هذا، وإذا تقادمت به السنون والأيام تعاضم ذلك، وتنامى في نفسه فنظره مصوب إلى الولايات متى يستطيع أن يتمكن منها، فيقدم لربما، ويبدل، ويظهر مهارات وأشياء، ويدخل في برامج ودورات وتطوير لنفسه ونحو ذلك؛ من أجل أن يحصل هذه الولاية، تطوير القدرات أمر جيد، ومطلوب لكن من أجل أن تحصل الولايات لا، فإن ذلك ليس بمطلب، فهي أمانة وليست بتشريف، ولكن البيئة التي يعيش فيها الإنسان أحياناً ربما تسوقه إلى ذلك دون أن يشعر، إن لم يكن يلتفت إلى الحقائق والمعاني، ولا يعتر بالآلِفاظ والمباني، والصور والمظاهر والقشور، وإنما ينظر إلى ما وراء ذلك، هذا الكرسي الذي يدور لابدّ أن يجلس عليه غيره، لم يجلس عليه إلا بعدما ذهب الذي قبله، إما أن يُقال أو يتقاعد أو يمرض مرضاً يقعده، ويعجزه عن العمل، أو يموت، ولا بدّ، هي سنة الله في الخلق، ولو كانت تدوم لأحد لما وصلت إليك، فيدرك الإنسان أن هذه مسئولية، وأنها أمانة يقوم بها ويؤديها على الوجه المطلوب، ويسأل ربه أن يخرج منها ولو كفافاً، فعمر -رضي الله عنه- وهو عمر - كان يتمنى أن يخرج من الدنيا كفافاً لا له ولا عليه، ولما طعن -رضي الله تعالى عنه- وجعل نفر الستة الذين قبض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو راضٍ عنهم بحيث تحصل بينهم المشورة، وتكون الخلافة في واحد منهم جعل عبد الله ابنه وهو يصلح للخلافة معهم مرجحاً فقط دون أن تصير الولاية له، اشترط هذا الشرط، وقال: يكفي في آل الخطاب أن يكون فيهم واحد، يعني يُبتلى بهذا الأمر، فإذا دعت الحاجة إلى هذا الإنسان بحيث إن الآخرين لم يتفطنوا ولم يعلموا فله أن يقول: أنا أستطيع أن أقوم بهذا الجانب، أنا أستطيع أن ألي هذه الولاية، أما أن تكون شهوة عند الإنسان، ويفرح إذا وضع رئيساً على أصحابه في عمل من الأعمال فإن ذلك لا يبشر بخير، إذا كانت النفس تفرح بهذا وتزهو فهذه آفة، والنفوس تحتاج إلى مجاهدات، وهذا من أعظم الشهوات، شهوة الرئاسة، فإن الإنسان يبذل المال من أجلها، وبعضهم أسوأ من ذلك يبذل الدين من أجل أن يحصل الرئاسة، فإن كان عالماً فقد يفتي بفتاوى رخيصة؛ ليحصل شيئاً من حطام الدنيا، أن يحصل شرفاً، أن يحصل تعاسة بعبارة أصح، ثم ماذا يكون بعد ذلك؟، يلفظ وتمججه النفوس، وتوضع له البغضاء في قلوب الخلق، والله المستعان.

(٣) أخرجه الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٣٧٦)، وأحمد في المسند، برقم (١٥٧٩٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٦٢٠).

يقول الله -تبارك وتعالى-: **{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}** [القصص: ٨٣]، واحتجت الجنة والنار عند ربهما، فقالت الجنة: يدخلني الفقراء والضعفاء من الناس، والنار تقول: يدخلني الأغنياء والكبراء من الناس^(٤).

فالشاهد أن أكثر أهل الجنة من الضعفاء والفقراء؛ ولذلك ينبغي على الإنسان أن يحرص على حفظ دينه وإيمانه، وأن يتقرب إلى مولاه -جل جلاله-؛ لأن هذه الدنيا معبر، وهي مزرعة للآخرة، وإنما أوجده الله -عز وجل- بها لعبادته، والله يقول: **{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}** [الملك: ٢] فلا يتهالك الإنسان من أجل جمع حطامها، وإنما يأخذ منها بالقدر الذي يحصل له به الكفاية، يأخذه من حله، ويصرفه في حله، ويؤدي حق الله -عز وجل- فيه، لكن لا يتهالك عليها، وكذلك لا يتهالك على أنواع مطلوباتها من الرئاسات، وطلب الشرف والعلو والرفعة في الأرض، وما أشبه ذلك، والله المستعان.

وذكر بعده ما يدل على هذا من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٤٦)، والترمذي، أبواب صفة الجنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في احتجاج الجنة والنار، برقم (٢٥٦١).